سلسلة الدراسات التاريخية (15)

البحر الأحمر

قنطرة التواصل بين ساحليه في العصور الإسلامية

أ.د. عزالدين عمر موسى

الطبعة الأولى - 2023

البحر الأحمر
قنطرة التواصل بين ساحليه في العصور الإسلامية
أ.د. عز الدين عمر موسى
الطبعة الأولى 2023

سلسلة الدراسات التاريخية (15)

البحر الأحمر

قنطرة التواصل بين ساحليه في العصور الإسلامية

أ.د. عزالدين عمر موسى

الطبعة الأولى - 2023

اســم الكــتاب:
البحر الأحمر: قنطرة التواصل بين ساحليه في العصور الإسلامية

الـمؤلــف:
أ. د عزالدين عمر موسى

الايداع القانوني:
...../ 2032م

الناشـــــر:
دار آريثيريا للنشر والتوزيع - الخرطوم - السودان
جوال: -00249122094856 121566207

البريـــد الإلكترونـي:
arithriaforpublishing@gmail.com

تاريخ النشر :
الطبعة الأولى 2023م

جميع حقوق الطبع محفوظة للناشر والمؤلف
لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه كنسخة إلكترونية أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي مسبق من المؤلف والناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم
شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله
اتقاكم إن الله عليم خبير

صدق الله العظيم
الحجرات الآية (١٣)

الفهـــــرس

الـموضـــــوع	رقم الصفحة
الآية	3
تقديم	5
تمهيد	7
مقدمة	10
تهافت القول بصعوبة الملاحة في البحر الأحمر	11
صعوبة الملاحة في البحر الأحمر	12
تنوع وتعدد طرق الملاحة في البحر الأحمر	14
ملاحة البحر الأحمر في العصر الإسلامي	14
المظاهر الحضارية العابرة بين ساحليه	16
مظاهر التنوع العابر للقنطرة المائية	16
الخاتمة	20
المصادر والمراجع	21
المؤلف فى سطور	22

تقديـــــــم

يسرني ويشرفني التقديم لكتاب البروفيسور عزالدين عمر موسى رئيس مركز العز بن عبدالسلام الثقافي والعالم المعروف داخل السودان وخارجه، الموسوم بعنوان: (**البحر الأحمر قنطرة التواصل بين ساحليه في العصور الإسلامية**).

والكتاب عبارة عن محاضرة القيت في شهر فبراير 2023م في قاعة الشارقة بجامعة الخرطوم في احتفالية تكريم المؤلف من قبل مركز بحوث ودراسات دول حوض البحر الأحمر - السودان بدرع التميز العلمي، وقام مركز بحوث ودراسات دول حوض البحر الأحمر بتوثيقها الكترونيا تعميماً للفائدة .

يتطرق الكتاب إلى موانئ البحر الاحمر(بحر القُلزُم) والدور الذي لعبه في تجسير التواصل بين العديد من أقطار العالم الإسلامي خلال احقاب تاريخية متعاقبة.ويؤمن الكثير من الدارسين على أهمية البحر الأحمر في حقل التبادل التجاري كأحد اهم طريقين بحريين لتجارة (الشرق) المهمة مع دول وإمبراطوريات حول شواطئ البحر الأبيض المتوسط. لذا ارتبطت الملاحة في هذا البحر بتاريخ الدول الإسلامية سيما في اتصالاتها الخارجية مع كثير من الأمم والشعوب.

قسم البروفيسور عزالدين عمر موسى موضوع مؤلفه إلى ثلاثة أقسام ومقدمة ونتيجة وهي: تهافت القول بصعوبة الملاحة في البحر الأحمر؛ تنوع وتعدد طرق الملاحة فيه والمظاهر الحضارية العابرة بين ساحليه. وبالنسبة للموضوع الأول أبان أن الملاحة تواجه ثلاث معضلات: وهي إنقطاع وصولها إلى مركز التجارة الشرقية في طرفها الغربي إذ لايتصل الجزء الشمالي من البحر الأحمر بالبحر الأبيض المتوسط ونهر النيل. ثانيا عقبة موضوع الملاحة لاعتمادها على مصادر عربية-اسلامية شحيحة استندت

بدورها على كتب وتقارير متفرقة لرحالة وجغرافيين من الإغريق والرومان، علاوة على قلة المعلومات الأثرية عن هذه المنطقة. وثالثا: ندرة المعلومات عن حوض البحر الأحمر في الفترات الإسلامية المتعاقبة.

والموضوع الثالث الذي تحدث فيه المحاضر مؤلف هذا الكتاب هو تعدد وتنوع طرق الملاحة في البحر الأحمر مبينا أنها أعطت رافداً جديداً لتجارة شبه الجزيرة العربية التي كانت تعتمد على القوافل البرية عبر الصحارى والسهوب. ويحدثنا السجل التاريخي أن اساطيل الفراعنة المصريين جابت مياه البحر الأحمر للتجارة ووصلت إلى بلاد بنت (الصومال).وخلال العصور الإسلامية المختلفة(الخلافة الراشدة، العصرين الأموي والعباسي) إزدهرت التجارة البحرية وطافت الأساطيل موانئه وربطتها بتجارة البحر الأبيض المتوسط والشرق الأقصى.

وتناول الكتاب المظاهر الحضارية بين ساحلي البحر الأحمر والتي تتمثل في قيام العديد من الموانئ والمدن الكبيرة والصغيرة التي ربطت البحر الأحمر بالعالم الخارجي وابرزها عدن، جدة، الجار، القلزم، الطور، عيذاب، باضع، سواكن دهلك وادوليس وغيرها.

وختم المؤلف حديثه بالتأكيد على أهمية البحر الأحمر عبر اطوال التاريخ المتلاحقة بما فيه من حركة سكانية ومظاهر حضارية رابطة سواحله بالتجارة الشرقية والمجتمعات المتوسطية.

ومما تم ايراده آنفا ،تتضح لنا أهمية هذا الكتاب ومنهجه في التوثيق التاريخي للبحر الأحمر خلال العصور الإسلامية. ولاريب أن هذا الجهد المعرفي مهم للغاية وسيسد فراغا في المكتبة السودانية، والعربية، والإسلامية عن تاريخ البحر الأحمر في الأزمان القديمة ويجد كل الترحاب من المختصين والباحثين والمهتمين بالبحر الأحمر.

أ.د. عبدالرحيم محمد خبير
السودان - الولاية الشمالية
(محلية مروي)
أكتوبر 2023م

تـمهيـــد

كان اهتمامي بالطرق اهتماما عارضا في دراسة وتدريس التاريخ الذى يقوم على التاريخ السياسي وزاد اهتمامي بالطرق البرية والبحرية لما تناولت التاريخ الاقتصادي في المغرب الاسلامي في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي موضوعاً لاطروحة الدكتوراه ابتداء من 1970. ومنذئذ تكشفت لي وبصور متنامية أن تلك الطرق لم تكن حاملة تجارات مختلفة، وسلع متنوعة، وعملات متباينة، واشياء حية وصامتة، وجيوشًا عابرة فحسب، و إنما هي إحدى أهم مسارب الحضارة البشرية في تلك العصور القديمة والوسطى وردحا من العصر الحديث قبل الثورة الصناعية الثالثة. وعبر تلك الطرق تتنقل الافكار، ومن خلالها تفهم الاوضاع وعملات الاقتصادية وتبدلاتها، والتركيبة السكانية وتغيراتها، والنمو العمراني وتقلباته، والقضايا السياسية وتحولاتها، ومراكز الثقافة، ومؤشراتها.

ومن هنا تظهر ضرورة أهمية تعدد العلوم والمصادر في تناول الطرق في تلك العصور سواء في تقميش المعلومات أو التثبت منها وتحليلها وتأويلها. وهنا لابد من استقصاء الموارد التاريخية مثل كتب التاريخ العام، وكتب البلدان والرحلات وطبقات الرجال المختلفة علاوة على علمي الآثار والأدب وعلمي العمران البشري والاقتصاد. وتتضاعف مشكلة المصادر في تناول البحر الاحمر قنطرة للتواصل بين ساحليه في العصور الإسلامية لأسباب عديدة.

أولا، إن كثيرا من المعلومات عن الموانئ شحيحة والدراسات قليلة خاصة الآثارية، غير أن هناك معلومات طيبة عن عدد من الموانئ قبل الاسلام وبعده مثل لويكي كومي والحوراء والمويلح والقلزم/ السويس والجار/ جدة وعيذاب ومصوع وعدن وأضرابها

ثانيا: يرى بعض الدارسين ان هناك عوامل طبيعية تعيق الملاحة في البحر الاحمر.

ثالثا: يتناول الدارسون هذه الملاحة كجزء من التجارة الشرقية العالمية، ولا يقفون وقفة متأنية عند التجارة البينية بين موانئها. إن المعلومات المتوفرة تضعف الرأي القائل بصعوبة الملاحة في البحر الاحمر، كما انها لا تسعف على دراسة مجتمعة بطريقة غويتاين فى دراسة مجتمع البحر الابيض المتوسط، ولكنها معلومات كافية نسبيا لاستخدام اسلوب الزمن الطويل عند بروديل. وخلصت الى ان البحر الاحمر يمثل بحيرة حضارية بفضل الطرق البينية بين موانئ ساحليه، وبين موانئ الساحل الواحد، وبفضل دورها مجتمعة في التجارة الشرقية وبسبب الهجرات البشرية فتعددت اللغات والثقافات وتنوعت العادات والعلوم، وقامت في العديد من تلك الموانئ مجتمعات يمكن وصفها بالعالمية فاصبح البحر الاحمر قنطرة بين ساحليه وليس معبرا للتجارة الشرقية فحسب. وقسمت الموضوع الى ثلاثة أقسام ومقدمة ونتيجة. والموضوعات هي:-

1. .تهافت القول بصعوبة الملاحة فيه.
2. تنوع وتعدد طرق الملاحة فيه.
3. المظاهر الحضارية العابرة بين ساحليه.

وعندما ما أبلغني البروفيسور حاتم الصديق محمد أحمد رئيس مركز بحوث ودراسات دول البحر الأحمر قرارهم بتكريمي من خلال محاضرة عامة، وتركوا لي موضوعها، رحبت واقترحت عليهم هذا العنوان لأنه يتسق وأهداف مركزهم، ولأنه يمثل بعض ما يشغلني وقد كتبت ما يشابهه عن الخليج والصحراء الكبرى ويمثل حلقة في مشروع أحلم به، ولأنه يشجع على كتابة رسائل جامعية متعددة في تناول مفرداته في غير علم.

والان وقد طلب بروف حاتم صديق نشر المحاضرة إلكترونيا كما قدمت نسبة لظروف الحرب واستشفائي في نيويورك وبعدي عن مصادري واوراقي سيما ملحوظات المناقشين الرئيسين والمشاركات المشاركين الماتعة ممن حضروا تلك المائدة العلمية، ولكي يستفاد منها قبل أن تنشر علميا ولا تبقى حبيسة الادراج، ولحسن ظن البروفيسور حاتم الصديق في كالعهد به في الناس. فخضعت لطلبه، وعندي أمر متحملا المسؤولية العلمية لكل ما فيه.

وختاما أبث شكري إلى البروفيسور عبدالرحيم محمد خبير، أستاذ علم الآثار بالجامعات السودانية والعربية، وإلى هذا المركز المتميز مركز بحوث ودراسات دول حوض البحر الأحمر وإلى البروفيسور حاتم الصديق محمد أحمد المبدع وإلى كل من شارك برأي أو معلومة أو تصحيح وهي في حرز مكين إلى يوم نشر المحاضرة ضمن كتاب بإذن الله.

سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على

المرسلين والحمد لله اولا وآخر.

عزالدين عمر موسى

نيويورك 24 أكتوبر 2023م

مقدمـــــة

تأملت في قراءة سابقة عن موانئ البحرين في العصور الإسلامية من خلال تساؤلين محوريين هما؛ هل كانت الطرق البحرية في الخليج العربي رابطة بين موانيه؟ وهل تلك الموانئ في تعاصر أم تعاقب وتتابع؟ ووجدت أن الموانئ ازدهرت بسبب التجارة البحرية الشرقية العابرة لا بفضل ظهيرها الجغرافي الإقتصادي، فازدهرت الموانئ في ظروف سياسية أو دينية متغايرة قد تصاحبها عوامل إقتصادية أوأمنية متباينة فازدهرت المدن في تعاقب وليس بالضرورة أن يكون بينها تواصل مستمر.

ونظرت متأملاً في تاريخ البحر الأحمر ووجدته يثير التساؤلين الإثنين ذاتهما علاوة على تساؤلين إضافيين مهمين؛ الأول، أن ساحلي البحر الأحمر أطول من ساحلي الخليج العربي فتكاثرت فيه البيئات وتعددت وهي عرضة للتقلبات السياسية والأمنية بصورة أكبر. والثاني إن البحر الأحمر مثّل بحيرة حضارية متعددة الأعراق، متنوعة الحضارات، مختلفة اللغات، متباينة الثقافات. والتواصل بين ساحليه يدعو إلى التساؤلات عن مدى تمثيل البحر الأحمر لقنطرة تواصل حضاري بين الساحلين بخاصة في العصور الإسلامية. وهذا تساؤل كبير تعتاقه معضلات ينبغي الوقوف عليها أولاً.

تهافت القول بصعوبة الملاحة في البحر الأحمر

هناك ثلاث معضلات تواجه الباحث في هذا الموضوع؛ أولاً، إن الملاحة تنقطع عن وصولها إلى مركز/ مراكز التجارة الشرقية في طرفها الغربي إذ لا يتصل الجزء الشمالي من البحر الأحمر لا بالبحر الأبيض ولا بالنيل، بينما تتصل الملاحة في الطرف الشرقي عبر الفرات الذي يصب في البحر الحبشي (يعني الخليج). ثانياً، المعتمد الرئيس في معلومات، هذا الموضوع هو كتب جغرافية إن في ثوبها اليوناني الروماني أو دثارهما العربي الإسلامي. وفي هذه المصادر معضلة غير يسيرة إذ أن اللاحق يأخذ عن السابق وقل ما يذكره مما يشكل عقبة في دراسة الموضوع في تسلسل زمني بخاصة إن لم يجد الدارس في مصادر التاريخ العام والحفريات الأثارية ما يسعفه. هذا فضلاً عن أن الخرائط الجغرافية العربية تصور البحر الأحمر والخليج كأنها في ساحلها الشرقي خط مستقيم متمدد مصاقباً الساحل الأفريقي كله. ثالثاً، إن عدم توافر المعلومات الكافية عن الحقبة الزمنية يحتاج إلى منظور كالذي يقول به بروديل عن الزمن الطويل وهذا لن توفره الدراسات المتقطعة زمناً أومكاناً لاسيما عندما تتناول الدراسات الموضوع بناء على مقولة صعوبة الملاحة في البحر الأحمر دون استبصار حقيقة هذه المقولة.

صعوبــة الـمـلاحــة فـي البحــر الأحمــر

هناك من يرون أن أفريقيا والجزيرة العربية كانتا رتقاً أرضياً واحداً ففتقهما ما يعرف بالانشقاق الكبير الذي خلّف أخدوداً كبيراً هو البحر الأحمر (بحر القلزم) الذي يسمى في المصادر العربية بالجهة المصاقبة أو الثغر الغالب. هذا ويوشك أن يلتصق ساحلاه في الجزء الجنوبي عند باب المندب حتى تكاد أن تصبح شرق أفريقيا واليمن بيئة جغرافية واحدة. أما الجزء الشمالي فيفصله عن البحر الأبيض فرجة أرضية قصيرة عند خليجي القلزم وأيلة، فغدت هذه الفرجة بوابة واسعة للتواصل بين آسيا وأفريقيا. أما الملاحة شمالاً وجنوباً، وغرباً وشرقاً ففيه فضل كلام.

ومن الدارسين من يقول بأن الملاحة في البحر الأحمر واجهتها صعاب جمة لاسيا في الجزء الشمالي من ذلك البحر، وخير من يمثل هذه النظرة جورج حوراني (كتابه العرب والملاحة) الذي يقول بأن هناك ستة أسباب أثرت في تلك الملاحة تأثيراً سلبيا، مثل عدم توافر الخشب لبناء سفن كبيرة، وكذلك الحديد لمساميرها، وقلة الموانئ وضعف تميزها إن وجدت، ولا مياه صالحة للشرب فيها ،واعاقة الشعب المرجانية الضخمة للملاحة فيه، فضلاً عن أن الرياح الشمالية تهب جنوباً طوال العام.

ومن المفيد الإشارة إلى أن حوراني نفسه أشاد بموقع الجزيرة العربية وبعض البقاع الخصيبة في بعض سواحلها، ووضّح أن الإتصال بين موانئها بحراً ليس بأشد صعوبة من عقبات صحاريها وجبالها وان اطلت عن طريقين بريين للتجارة العابرة. وعليه فإن النظرة المتعمقة تبيّن أن هناك عدّة ملحوظات تضعف القول بعدم صلاحية البحر الأحمر للملاحة .

إن أهل الخليج عرفوا الملاحة فيه عابرة وبين موانيه العديدة، وعُرف أهل الحيرة بذلك، وما قول طرفة بن العبد عن السفن العَدَوْليّة التي تصنع في قرية في البحرين إلا شاهد على ذلك فهو يقول: عَدَوليّة أو من سفين ابن يامِن ** يجود بها الملاح طوراً ويهتدى (البكري 926:3، ياقوت 623:3)

وكذلك استصحاب مبالغة مفاخرة عمرو بن كلثوم «ووجه البحر نملؤه سفينا» هذا رغم انتشار شعب مرجانية شمالي القطيف وتاروت (حُزيّن 140.143) ووجود قراصنة في بعض نواحيه مثل الخشبات بين البصرة وعبّادان (ابن خُرْدَاذَبه) (ت

300ه). والشعر لسان العرب فلا يخاطبهم إلا بما يعرفون. وأبلغ دليل على ذلك ما يذكره القرآن من وصف مستفيض عن البحر وأمواجه ومخاطره (البقرة 164، الأنعام 63، الأنعام 97، يونس 22، إبراهيم 32، الإسراء 66،67،70، الحج 65، لقمان 27، الشورى 32، الجاثية 12، الرحمن24).

وعليه ليس بمستغرب أن يوفروا مواد السفن بالتجارة والهجرة(كارلتون كون 149) فقد أُستوردت قديماً من السومريين وغيرهم، وقد عرفت مصر الحديد عن طريق جزيرة العرب

لقد عرف الشط الغربي من الجزء الجنوبي من البحر الأحمر موانٍ طبيعية متعددة. أما الجزء الشمالي من البحر الاحمر موانٍ عديدة ومزدهرة في التاريخ القديم إليها تصل التجارة العابرة بحراً ومنها تحمل براً إلى الآفاق في الحجاز والشام والعراق وإلى مصر وحوض البحر الأبيض المتوسط. من هذا ميناء لُويْكي كُومي (المدينة البيضاء) أهم الموانئ الحجازية في عهد البطالسة (الحوراء (جواد على)- المويلح (ونست) أو الخريبة)

ومنها أيضاً رَعمة التي ذكرت مع سبأ في أسفار حزقيال عن تجارة الطيب والحجارة الكريمة. وعلى ضوء هذا ربما يتيسر فهم أسطورة إرم ذات العماد وتنقلها هذه المدينة في البلاد.

وكان لتلك الموانئ الكبرى أراضي خلفية فيها إقتصاد نافع مثل سبأ ومدين وثمود، وقد أشار الجغرافيون الإسلاميون إلى مواضع عديدة عرفت بذهبها ووجود معادن أخرى كريمة فيها (جواد علي 415:2).

ومن هنا لا يستغرب أن تسعى الإمبراطوريات المتصارعة على التجارة الشرقية بتسهيل مساربها. فقد حفر الفراعنة قناه تربط النيل والبحر الأحمر وجددتها إمبراطورية دارا الفارسية وسعى عمر بن الخطاب لاستعادتها في مفتتح العصور الإسلامية.

ومن كل هذا يتضح تهافت القول بأن الملاحة في البحر الأحمر كانت ضعيفة كضعف النظرية التي جارتها ألا وهي نظرية بيرين بأن قيام دولة الإسلام أضعف تجارة البحر الأبيض المتوسط.

والحالة هذا فقد كان البحر الأحمر مزدهرة ملاحته، ومتنوعة مساراتها، وحاملة لمظاهر حضارية بين ساحليه وبين موانيه على اختلاف مناطقها، وكان ذلك وكأنه مقدمة لما صار في العصر الإسلامي.

تنوع وتعـدد طـرق الـملاحـة في البحـر الأحمـر

ملاحة البحر الأحمر في العصر الإسلامي:

إذا ما سلم المرء بالقول المشهور بأن تجارة الجزيرة العربية كان اعتمادها على القوافل جوابة الافاق، مخترقة الصحاري والسهوب، مارة بشاهق الجبال، معترضة لمخاطر أمنية عظيمة في مرورها بمدن الجزيرة القديمة الكثيرة، فإنه يلتقي بظاهرتين تقودانه إلى القول بأن البحر مع مخاطره المرصودة كان أكثر قبولاً مما يظن ، لاسيما إذا ما نظر ذلك المرء إلى المتاعب المرهقة والتكاليف الباهظة التي تواجهه كالذي كان يقع مع عير كسرى من المدائن إلى اليمن براً وهي تدفع خفارات تلو خفارات للقبائل التي تمر بها. ولا يستغرب الناظر نفسه أن يتحول الناس إلى البحر كلما كان ذلك أيسر. يقول الاصطخري (ت 326ه) في حديثه عن الطريق البري من البحرين إلى عُمان: (وأما عُمان فهو طريق يصعب سلوكه في البرية لكثرة القفار بها وقلة السكان، وإنما طريقهم البحر إلى جُدة، وإن سلكوا على ساحل من مهرة وحضرموت إلى عدن...وقلّ ما يسلكونه») (المسالك والممالك ص 28).

ولهذا لا يندهش ذلك المرء عندما يتبيّن ضعف التجارة البرية في الجزيرة العربية عندما مخرت أساطيل الفراعنة مياه البحر الأحمر واصلين بتجارتهم إلى بلاد (بونت) (الصومال واليمن)، واضعين ارهاصات الهيمنة المصرية على البحر الأحمر بالتجارة الشرقية. وانتكس المشروع يوم ضعفت الأساطيل المصرية وخلف محلها لفترة قصيرة السفن المعينية والسبئية والنبطية التي تضاءلت أدوارها مع البطالسة الذين وضعوا بصمات واضحة في ذلك المشروع المصري القديم للسيطرة على التجارة الشرقية العابرة في هذه البحيرة المصرية، فأقاموا علاقات متينة مع عرب الجنوب والحبشة. وأراد الرومان من بعدهم ترسيخها بمحاولة احتلال اليمن بحملة اليوس غالوس سنة 24 ق.م وبفشلها تحالفوا مع الدولة الحميرية النامية، فأصبحت عدن كما يقول المقدسي:»دهليز الصين وفرضة اليمن والمغرب ومعدن التجارات» ومركز التجارة البحرية الهندية والأفريقية والعربية. وربما بفضل هذه السياسات ظهرت معلومات كثيرة عن البحر الأحمر في مصنفات اليونان والرومان مثل ما كتبه بطليموس وصاحب

الطواف على البحر الإريتري واسترابو. وأضعفت هذه التطورات دور الخليج الفارسي في التجارة الشرقية فقام صراع فارسي بيرنطي أو خليجي بحر أحمر والذي اتخذ أساليب عسكرية عنيفة.

واستمر هذا التنافس أو الصراع على تلك التجارة بعد قيام الخلافة الإسلامية التي استمرت في عهدي الراشدين والأموية في دعم دور البحر الأحمر وعندما قامت الدولة العباسية سعت لإضعاف التجارة الشرقية عبر البحر الأحمر ودعمتها عبر الخليج إلا أن ثورة الزنج في القرن الثالث وحركة القرامطة التي امتدت إلى مطلع القرن الرابع أضعفت تلك الجهود في الوقت الذي قويت فيه تجارة البحر الأحمر بجهود التجار الكارميين وتجارة الغرب الإسلامي والسياسة التي سار عليها كل من الطولونيين فالأخشيديين فالفاطميين فالأيوبيين ثم المماليك والتي وفّرت الحماية للأساطيل بحراً والقوافل التجارية من غارات البدو والأحباش براً. فازدهرت عدن وجُدة والسرين وعيذاب والقصير ثم سواكن والطور ومصوع وادوليس على التتابع. وأصبح البحر الأحمر بحيرة إسلامية خالصة ومصرية التوجه فلا غرو أن يغدو قنطرة للتواصل الحضاري المتنوع امتداداً لذلك الذي كان في العصور القديمة. فما مظاهر هذا التنوع الحضاري العبارة لهذا الجسر المائي؟

الـمظاهـر الحضاريــة العابــرة بين ساحليــه

مظاهر التنوع العابر للقنطرة المائية:

إن المظاهر يجمعها تنقل السكان وتدفق الأفكار وتنوع الانجازات. وتعترض الناظر في هذا الموضوع عقبتان رئيسيتان، الأولى، أن المعلومات قليلة ومبعثرة في أنواع مؤلفات مختلفة إلا إذا اسعفت المصادر الآثارية وهي لا تزال قليلة. الثانية، إن عدداً غير يسير من المعلومات تغطيه حجب كثيف من الروايات الأسطورية، بيد أن الأسطورة نفسها فيها جرثومة من الحقيقة التي تهدي إلى رسم صورة عن الواقع الذي تتناوله. وعلى هذا فمن الصعوبة بمكان تناول الهجرات والأنساب دون إماطة اللثام عن تلك الجرثومات. وهاتان مسألتان محوريتان في دراسة التواصل بين ساحلي البحر الأحمر

ومن يمن الطالع أن توافرت معلومات طيبة عن الموانئ الكبرى وصلاتها بالتجارتين الإقليمية والشرقية وانتشارها في ظهير الميناء وما بعده، إضافة إلى تواصل تلك الموانئ الكبرى والصغرى مع بعضها بحراً كما ارتبطت براً في كثير من الأحيان. من هذا عدن وجُدة والجار والقُلزم ثم السويس والطور وعيذاب وقوص وسواكن ومصوع وأدوليس وأضرابها.

وهناك ثلاث وقفات مع دور هذه المدن في نشر المظاهر الحضارية؛ الوقفة الأولى مع كُويْكي كُومي في أيام ازدهارها ونقل تجارتها العالمية براً في الآفاق إلى بصري وبترا ثم إلى العراق والشام وسواحل المتوسط، فأصبحت كُويْكي كُومي مركزاً تجارياً عالمياً. والثانية مع جُدة التي تعددت طرقها البرية مع ظهيرها وطرقها البحرية مع التجارة المحلية والعالمية، بل إن رحلاتها البحرية مع الموانئ الأخرى في البحر الأحمر متعددة من حيث عدد الرحلات في اليوم الواحد وعدد الراحلين الذي بلغ أحياناً ثلاثة وخمسين فرداً في الرحلة الواحدة. وخير شاهد على هذا هجرة المسلمين إلى الحبشة وأحداثها. الثالثة، إن هناك ما يشي في وضوح إلى عالمية مجتمعات تلك المدن. وحسبك الإشارة إلى عَيْذَاب مثلاً ولها نظائر. فتركيبة سكانها أكثرهم من البجة وفيهم نوبة وأقوام من صعيد مصر وعربان ومغاربة وهنود وفرس وأحباش ويهود ونصارى حتى أن حياتهم الدينية والثقافية المتنوعة لافت ومتميز (بشير إبراهيم

بشير، عيذاب) وإليها شدت الرحال (مثلا ناصر خسرو وابن جبير وابن بطوطة وعدداً من الرحالة الأوروبيين).

وإذا يمم الدارس لهذا الموضوع شطر حركة السكان يجدها تنقسم إلى ثلاثة أصناف؛ اضطراري وقسري، جماعياً أو فردياً، وانتقال مؤقت. وقصة موسى عليه السلام التوراتية القرآنية بإسرائيلياتها تعبر عن هذه الأقسام خير تعبير بعد أن أحالت حفريات (مندنهول) الآثارية في القُريّة موضوعها إلى قصة حية ناطقة.

ويتمثل الصنف الأول، الاضطراري في الهجرات وينبغي الوقوف معها عدة وقفات. الأولى؛ هجرات قبلية كثيرة وكبيرة كانت منذ القدم عبر الفرجة الأرضية الفاصلة بين البحرين، الأحمر والأبيض، ثم تزايدت مع الإسلام وفتوحاته وأيام ازدهاره. وشارك في هذه الهجرات قبائل عدنانية وقحطانية بدرجات متفاوتة زماناً ومكاناً وأسباباً. ومن تلك القبائل من نزل مصر وربما استقر في صعيدها أوعبره إلى بلاد البجة أو دلف إلى بلاد النوبة. ومنها ما انداح في المغرب الكبير مستقراً فيه أو متجاوزاً له شمالاً وجنوباً. وهذه هجرات خارج شرط هذا التناول.

والوقفة الثانية مع هجرات عرب الجنوب في الإسلام امتداداً لما كان قبله، مشكّلاً وجوداً متصلاً غير منقطع بسبب شح المطر في اليمن والتصحر وبخاصة بعد انهيار سد مأرب في القديم وما أعقبه من تصحر بيّنه القرآن الكريم (سورة سبأ 17-15). فدخلوا الحبشة وجنوب بلاد البجة، وأحياناً تجاوزوهما إلى الوسط النيلي واستقروا حيث نزلوا، وتزاوجوا ونشروا ثقافتهم وأسسوا دولاً. وهو تقليد يماني في الحبشة بدأ مع الأجعازيان السبئيين ومعهم دخلت لغة الجعز السامية وتطور عنها لغة التقري. ويدلّك على التعدد اللغوي منذ فترة مبكرة أن نقش عيزانا في عام 325 ق.م كتب بثلاث لغات؛ هي الحبشية والسبئية والإغريقية. ولا يستغرب استمرار هذه الظاهرة (فالخاسة) قرب سواكن مسلمون يتكلمون التقري (المقريزي والنويري) وإن البجة عرفوا إلى جانب لغتهم (التبداويت) عرفوا لغة (البلويت).

ولعله من المفيد هنا الإشارة إلى أن الحميريين قد نشروا عبادة الشمس في المناطق التي وصلوها مثل النوبة العليا في تلميس والكلابشة وكذلك في الحبشة والانقسنا. وهناك ما يشير إلى أن هؤلاء المهاجرين تعايشوا مع بيئاتهم الجديدة فالحدارية

(الحضارمة) كانوا وثنيين وتحولوا إلى المسيحية ثم الإسلام (اليعقوبي، ابن حوقل، المقريزي) بل بنوا المساجد.

والوقفة الثالثة مع هجرات الوسط في ساحلي البحر الأحمر، وهي في شكلها وتطوراتها بارزة في هجرات الكواهلة وكنانة ودغيم وجهينة (ابن بطوطة). بيد أن بلى تستحق وقفة خاصة إن في مسرب هجراتها أو دلالة تميزها بدورهم في تأسيس دولة لهم. ولعلّ تعدد الروايات واختلافها في تاريخ هجراتها قد يشي إلى أن لها هجرات متعددة في أزمنة مختلفة إلا أن الذين عبروا عن طريق القلزم نسبوا إلى قضاعة وكونوا مملكة البلو في القرن الرابع عشر الميلادي فأصبح لهم وجود متميز فصاهرهم الأرتيقة، فرع من آل أبي قشير من حضرموت، الذين اشتغلوا بالتجارة بين الساحلين.

من هذا السرد تثور عدّة تساؤلات في قضايا التواصل بين الساحلين. فلماذا حركة السكان في الهجرات دائماً من الشرق إلى الغرب؟. وإن ذهب المرء إلى ما يقوله حُزيّن من أن جنوب بلاد العرب أقدم ثقافة من شرق أفريقيا فكيف يستقيم ذلك مع الإرث التاريخي لوادي النيل لاسيما في قضايا التطور اللغوي وكتاباتها والحضارة والتمدن وتجسيداتهما، فضلاً عما يثيره أن الافتراض الثالث في أصل الساميين أنهم من شرق أفريقيا فتناول الهجرة القسرية والانتقال المؤقت قد يساعدا في بلورة هذه القضية.

فالهجرة القسرية تتمثل غالباً في تجارة الرقيق، ولم يعرف البحر الأحمر تجارة جماعية في الرقيق كالتي عرفها الخليج الفارسي/العربي من شرق أفريقيا عبر المحيط الهندي/البحر العربي.فقد كانت الجموع تستورد وتستخدم في كسح سباخ الملح من أرض شط العرب لتصلح للزراعة. وكانت جموعهم كثيفة، فهزّت ثورتهم (275-255) الدولة العباسية سنين عدداً، وما قضي عليها إلا بشق الأنفس.

وهذه الظاهرة تدل على ضعف تركيبة الساحل الشرقي للبحر الأحمر الإقتصادية فهو طارد غير جاذب، ولهذا فالهجرة منه وليس إليه فسادته ثقافة مجتمع الرق القائمة على حب التبطل وكراهية العمل. ولهذا فالغالب على خدمة الرقيق فيه الخدمة المنزلية باختلاف أنواعها .. ولعل هذه النتيجة تسعف على فهم الحملة القرآنية في «أدعوهم لأبائهم هو أقسط عند الله» (الأحزاب :5).. أليس هي دعوة عامة للاندماج الإجتماعي لمن هم ليسوا من المجتمع إثنيا مما يدل على كثرتهم أفراداً وتأثيرهم اجتماعياً.

ويرتبط بهذه الظاهرة أمرين مقترنين في كل مجتمع متقدم أو يتقدم وهما: الصناعة والتجارة.. فإذا تأمل المرء في الصناعة وكيف ربطها أهل الساحل الغربي في جزءه الشمالي بالملاحة فقامت فيه داري صناعة في مدينة القلزم وعَيْذَاب، ولم تعرف مثلهما في الساحل الشرقي. وعرفوا كيف يصنعوا سفناً تغلّبت على صعاب الملاحة في البحر الأحمر حتى إن سفن سيراف تنقل منها الأحمال إلى سفن القلزم (المقريزي).

ومن المفيد هنا الإشارة إلى أنه في التجارة يحملون ما غلي ثمنه وقلّ وزنه فكانت تجارتهم في المعادن الثمينة، خاصة الذهب والزمرّد والطيب.. فالجزيرة العربية في أدب الكلاسيكيين تفوح طيباً ويقول استربو: كل عربي قبل المسيح تجاراً أو سماراً، لهذا هيمن على أهل الساحل للبحر الأحمر الشرقي العمل في التجارة.

ولا تجد في حركة السكان في البحر الأحمر شرقاً من الساحل الأفريقي إلا الحج بصورة غالبة وبفضله تضاعفت أهمية جُدة والجار وعَيْذاب. وعبره تناقلت معارف كثيرة وعلوماً عديدة وإليها يتوق أهل الساحل الغربي حتى أن أهل عَيْذَاب لهم رواق علمي في زبيد. ويقيم في عَيْذَاب العلماء العابرون مدة طويلة لاسيما وإن بيئتها كانت تستقبل المنفين من إداريي الأيوبيون والمماليك وفيهم أدباء وأهل علم.

ولا يختم هذا السرد إلا بالإشارة إلى قضية مركزية في العلاقة بين الساحلين والهجرات عبرها ألا وهي الإنساب. فأن ترتبط الأنساب بالهجرات فهذا أمر طبعي، بل ديناً مأمور به إذ فيه مطلوبات شرعية من زواج وميراث وديات وعاقلة. ولهذا طلب الرسول (صلى الله عليه وسلم) معرفة المسلم لنسبه ليتراحم. ولكن في الأنساب البعيدة لقرون أمر فيه نظر، مثل أنساب البربر والنوبة ومن شابههم لأن الأنساب الطويلة تتبدّل وتتغير في الزمان والمكان ورغبة الإنسان. وهذا ما توصّلت إليه في دراسة سابقة عن الأنساب العربية في العصور الإسلامية ووجدت فيها أشكالاً كثيرة من ذلك التبدّل والتغير والمصدر فيها كتب الأنساب الطويلة ذاتها فأصبحت تلك الأنساب ظاهرة إجتماعية. والسؤال الذي يفرض نفسه أين ذهب السكان الأصليين عندما ينتسب سلاسل الأحفاد لغيرهم. ولهذا فإن هذه الأنساب التي لحقت بالهجرات وما بعدها تمثّل ظاهرة ثقافية بعد انتشار الإسلام في البلاد التي استقبلت تلك الهجرات وهذا النوع من الأنساب تجده في سائر البلاد التي دخلت الإسلام في أفريقيا وآسيا. وفي حالة موضوع الدراسة هذه إن هي إلا إنعكاسات ثقافية للتواصل عبر هذه القنطرة المائية

الـخـاتـمــة

مما سبق يتضح أن ساحلي البحر الأحمر بينهما تواصل في جنوبه أو وسطه أو شماله وهو تواصل تجاري، وفيه حركة سكانية تبعتها مظاهر حضارية متنوعة. كما وضح أن الملاحة مزدهرة غالباً جنوباً شمالاً، شرقاً وغرباً، واصلة تلك السواحل بالتجارة الشرقية والمجتمعات المتوسطية. فكان البحر الأحمر بحيرة تلاقت فيها مختلف الثقافات والحضارات واللغات ولم تعق عقبات البحر الأحمر الطبيعية عن الاستمرارية والديمومة لتلك الصلات.

فهل يعيد أهله الكرة مع الحضارة الإنسانية العالمية الحديثة المعاشة بالاستفادة من روح التكامل والتعايش المشترك المفرز من تلك الصلات مع اجتناب السوالب الإقتصادية والاجتماعية باقتصاد تنمية الموارد المحلية وتكاملها محلياً وعالمياً لمصلحة الناس ، كل الناس، نشداناً للاستقرار فلا تترك الديار. ولعلّ هذا هو أهم درس مستفاد من هذا التاريخ المبحوث.

المصـــادر والـمـراجــع

(1) البكري، أبوعبدالله بن عبدالعزيز، المسالك والممالك.

(2) الحموي، ياقوت بن عبدالله، معجم البلدان.

(3) كارلتون كون، السلالات البشرية الحالية.

(4) اسفار حزيقال.

(5) جواد علي، المفصل في تاريخ العرب.

(6) الاصطخري، أبوالقاسم إبراهيم أحمد، المسالك والممالك.

(7) ناصر خسرو، سفر نامة.

(8) ابن جبير، أبوالحسن محمد بن أحمد، سير أعلام النبلاء.

(9) ابن بطوطة، أبو عبد الله محمد بن عبدالله، رحلة بن بطوطة.

(10) المقريزي، أبوالعباس تقي الدين أحمد، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار

المؤلف في سطور

أ. د. عزالدين عمر أحمد موسى

الميلاد: 1936/1/1م جزيرة توتي - الخرطوم.
السكن: ضاحية شمبات - الخرطوم بحري.
الحالة الاجتماعية: متزوج ولي ثلاثة اولاد وبنتان.

الشهادات العلمية: من الجامعة الاميركية في بيروت

1. دكتوراه (1975) موضوعها الاقتصاد في الغرب الإسلامي في القرن الساس الهجري
2. ماجستير(1969)، موضوعها النظم الادارية في دولة الموحدين في المغرب.
3. بكلوريوس(1962) في التاريخ العربي.
4. دبلوم تربية(1962).

اللغات:

1. العربية والانجليزية، قراءة وكتابة ومخاطبة.
2. الفرنسية والاسبانية، قراءة للبحث.

الدرجات العلمية:

1. مدرس في المرحلة المتوسطة والمرحلة الثانوية السودانية (1957-1958 1962-1966 على التتابع).
2. مساعد باحث ومساعد تدريس غير متفرغ في الجامعة الاميركية في بيروت (1973-1970)
3. محاضر في جامعة أحمدو بلو ، زاريا، نيجيريا (1973 - 1975) فمحاضر متميز (١٩٧٥-١٩٨١) ثم أستاذ التاريخ الاسلامي والافريقي (١٩٨١-١٩٨٣).
4. أستاذ التاريخ الاسلامي، جامعة الملك سعود، الرياض ،المملكة العربية السعودية (2007-1983)

5. أستاذ في جامعة نايف العربية للعلوم الامنية، الرياض ، المملكة العربية السعودية (8-2021).
6. استاذ زائر في عدة جامعات عربية وأفريقية منها أردنية ومغربية ونيجيرية.

الوظائـف الاكاديـميــة:

1. مدير مركز بحث تاريخ شمال نيجيريا، جامعة أحمدو بلو، زاريا (1978 - 1983).
2. رئيس قسم التاريخ ، كلية اللآداب، جامعة أحمدو بلو ، زاريا (1978 - 1983)

٣ - عضو مجلس كل من الجامعة وكلية الآداب وكلية التربية فى جامعة أحمدو بلو زاريا(1978 - 1983)

4. مؤسس وعميد كلية العلوم الاستراتيجية، جامعة نائف العربية للعلوم الامنية، الرياض (٢٠٠٧-٢٠١٨)
5. عضو مجلس الجامعة والمجلس العلمي لعديد الدورات في جامعة نائف العربية، الرياض.
6. مؤسس وعميد مركز أخلاقيات البحث العلمي التابع لاسيسكو ومستضاف في جامعة نائف (1921-19).

النشــاط العلمـــي:

١- الـمقـــررات :

درست عبر نصف قرن أكثر من عشرين مقررا في مرحلتي البكلوريوس والدراسات العليا بالإنجليزية والعربية في التاريخ الاسلامي سيما في الغرب الاسلامي وغرب افريقيا والفكر الاستراتيجي.

ب- الرسائل العلمية:

اشراف على 17 رسالة ماجستير، و12 رسالة دكتوراه، ومناقشة 21 رسالة ماجستير ودكتوراه

ج- الـمؤتـمــرات:

- حضور ما يربو عن 95 مؤتمرا.
- تنظيم ما يزيد عن 25 مؤتمرا لا سيما في الاستراتيجية

د- الانتـــاج العلمـــي:

«1» 96 بحثا علميا تناولت موضوعات تاريخية وفكرية واستراتيجية وقضايا

اجتماعية؛ منها 41 كتابا منفردا أو مشاركا مع آخرين (انظر السيرة الذاتية الكاملة في 32 صفحة). وهناك ستة كتب جاهزة للطبع جمعت أشتاتا من الابحاث التي نشرت من قبل متفرقة في مدونات المؤتمرات او منصات التواصل الاجتماعي للجهات التي قدمت فيها. والكتب هي:

- دراسات مغربية ، ج2
- دراسات غرب أفريقية،ج2
- دراسات في الفكر الاستراتيجي.
- دراسات تاريخية في الفكر الإسلامي.
- دراسات تاريخية سودانية.

المؤسسات العلمية والثقافية:

أ- العلميـــة:

1. الجمعية التاريخية النيجيرية.
2. الجمعية التاريخية السعودية.
3. منتدى الفكر العربي.
4. مؤسسة آل البيت الملكية للفكر الاسلامي.
5. مجمع اللغة العربية الاردني.
6. عضو في عدد من لجان الجوائز العربية بخاصة جائزة الملك فيصل العالمية.
7. مشارك شبه دائم في الدروس الحسنية الملكية المغربية.
8. مؤسس ورئيس مركز العز ابن عبدالسلام للدراسات العربية الاسلامية الأفربقية في شمبات / الخرطوم ، ولما نال جائزة الملك فيصل العالمية أوقفها على إنشائه.

ب-الثقافيـــة:

مشارك بصورة دائمة في الديوانيات الاسبوعية المتعددة المتنوعة في الرياض حاضرة المملكة العربية السعودية لما يقارب أربعين عاما، وكذلك في المنتديات الثقافية السودانية فيها، بل مؤسس لعدد منها، ومثل ذلك حيثما حللت زائرا في مغترباتهم مهاجرهم أو فى السودان نفسه أو الاستضافات في القنوات الفضائية والاذاعات العربية، وتوج ذلك بتكريمي في اثنينية عبدالمقصود خوجه في جدة للمثقفين العرب

النشاط الاجتماعي والعمل العام:

أ. رئيس الجالية السودانية في المملكة العربية السعودية الاسبق.

ب. رئيس لجنة الحوار الوطني للسودانيين في الخارج بتعين رئاسي جمهوري.

ج. عضو اللجنة السداسية العليا للحوار الوطني فى السودان.

د. عضو المجلس الوطني عن لجان الحوار الوطني

هـ. رئيس فخري لعديد الروابط الرياضية والجمعيات الاجتماعية فى الرياض، السعودية

و. رئيس مجلس أمناء فريق توتي الرياضي في الدوري الرياضي السوداني.،

الجوائـــز والأوسمـــة:

أ. جائزة الملك فيصل العالمية (السعودية).

ب. ارادة ملكية بعضوية مؤسسة آل البيت الملكية للفكر الاسلامي.

ج. وسام العلم والثقافة (السودان).

د. وسام الجدارة (السودان).

ز. درع التميز العلمي – مركز بحوث ودراسات دول حوض البحر الأحمر (السودان)

القارىء الكريم:

سلسلة الدراسات التاريخية هي مجموعة من الدراسات والبحوث العلمية الرصينة الهادفة، عملت دار آريثيريا للنشر والتوزيع على تبنيها والاهتمام بها ونشرها بالشراكة مع مركز بحوث ودراسات حوض البحر الأحمر.. خدمةً للبحث العلمي في مجال الدراسات والبحوث التاريخية.

القارئ الكريم:

تثمن دار آريثيريا للنشر والتوزيع المجهودات العلمية لجميع المفكرين والمختصين والباحثين من مختلف الدول العربية وخارجها، وتؤكد بأنها سوف تعمل بكل جد واجتهاد على توسيع قاعدة النشر العلمي وإتاحته عبر الدار وشركائها، لنشر البحوث التي تسهم في رفد المكتبة العربية والعالمية بالجديد المفيد.

القارئ الكريم:

العالم اليوم يؤمن بالعمل الجاد والبحوث العلمية الرصينة ذات المردود الإيجابي على الفرد والمجتمع، ومن خلال هذا المحور نعمل دائما - بحول الله تعالى - كي تكون الدار منبراً علمياً يشار إليه بالبنان. بإذنه تعالى.

APD
دار آريثيريا للنشر والتوزيع
Arrythria for Publishing and Distribution